الإيمان والتجديد

يهبط الايمان أولَ ما يهبطُ في قلوب الصفوة الأولى من المؤمنين غضّاً، ندّياً، مشرقاً،متوهجَ النور، متّقد الجذوة، يُضيءُ جنبات النفس، ويُشيع في الروح الحرارةَ والدفء والحماس والحركة.

فلا غرو أن تنهض – بهذا الايمان – شعوبٌ، و تقوم دولٌ، وتنمو حضارات.

ثم يمضى هذا الايمان عبر الزمن، مارّاً بالأجيال والأعصار، وهو كلّما أوغل في سيره، وأبعدَ في ترحاله.. أوهنته الأيام، وأضعفته السنون، ومصّت رواءَه الدهور، وأيبست نداوته سَموم العصور؛ فيشيخ ويهرم، حتى لا يكاد يبقى من ماء حياته و توهج نوره، وإشراق شمسه.. إلاّ ذبالاتٌ واهنة شاحبة، ترتعش في ظلمات الأفئدة – بين فترة وأخرى – كما ترتعش ذبالة النفس المدنفة في صحوة من صحوات الموت قبيل إنطفاءتها الأخيرة.

وعندما يصل الايمان هذه المرحلة الخطرة والحرجة في حياة الشعوب والدول، والحضارات؛ فما أسرع ما تتهاوى و تنهار و تنهدم و تتحول الى ركامات بشرية بائسة تحيا على هامش الحياة، وخارج تأريخ العظمة والمجد والبطولة.

ولكن.. لماذا يشيخ الايمان ويهرم؟ وكيف يصل في الإنسان حافّة الخطر، ونقطة الحرج؟!

يحدث هذا عندما يَحْقُرُ الانسان نفسه العظيمة، ويدفع بوجوده الواسع الممتد نحو التصاغر والتضاؤل والانكفاء، ويدس آماله البعيدة الواسعة في قمقم «الدنيا» ويغلق عليه حدودَ حياته التي لا حدود لها، ويطبق دائرة روحه المفتوحة والمنداحة بين شواطئ الأزل والأبد، على زمانه ومكانه المحدودين الضيقين، فتتعاظم – عندئذ – الدنيا في حس المؤمن ووجدانه، وتتضخم صورتها في نفسه وعقله، فتصبح – بعد هذا – اكبر همّه، ومبلغ علمه. بينما تغيب «الآخرة» عن ذهنه، وتحتجب عن خياله، وتتوارى عن إهتماماته، ولا تعود تَشْغَلُ من نفسه إلاّ مساحة صغيرة لا تكاد تبين أو تظهر.

والإنسان أبديٌّ بفطرته، أي أنه مخلوق للأبد والخلود، ولولا ما يمكن أن يسبق الى وهم المؤمن شئ من معاني الألوهية إذا ظلّ حيّاً ولم يصبه الموت في دنياه.. لما كتب الله تعالى عليه الموت.

وفي الحديث القدسي الذى رواه البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه ما يومئ الى ذلك؛ يقول الله تعالى:(... وما تردّدتُ في شئ أنا فاعله تردّدى في قبض نَفْسِ المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مُساءَته) .

فهو – تعالى – يُقهره بالموت ويعلُمه أن الموت والحياة بيد الله وحده، وأنّ أبدية الانسان ليست ذاتية تنبع من ذاته، وإنما هي عطاء كريم من عطاءات الله، وأنه – تعالى – قادر على سلبه هذا العطاء متى يريد وكيف يشاء.

فالآخرة – إذن – هي الامتداد الطبيعي للدنيا، وقد خلقها الله ومنحها منحة الخلود والأبد ليستأنف فيها الانسان – مؤمناً أو كافراً – حياته الأبدية في الجنة أو النار.

والعاقل من البشر، هو الذي يعمل لدنياه بقدر مكوثه فيها، ويعمل لآخرته بقدر ما سيمكث فيها أيضاً.. ومن السخف والحماقة أن تنسينا أعمارنا المحدودة القصيرة على هذه الأرض – مهما طالت واستطالت، وخلت من المتاعب والمنغصات – ما ينتظرنا من حياة أخروية أبدية لا نفاد لها ولا إنتهاء.

وعندما ينسى المؤمنون هذه الحقيقة الايمانية أو يتناسونها، وتغيب عن أفكارهم وتحتجب عن بصائرهم.. يبدأ الايمان في قلوبهم يضعف ويهزل ويضمر، ويغدو – بالتالي – عاجزاً عن الصمود إزاء مغريات الدنيا ومفاتنها وسرعان ما يتساقط هؤلاء المؤمنون في شباكها، ويغوصون في أوحالها، ويخطبون ودّها، ويتملقون لها، ويتصرفون فيها تصرف الدنيويين المنغمسين في رمال سرابها إلى أذقانهم.

وهنا يكون الايمان والمؤمنون في خطر عظيم ومأزق جسيم.. ينتظران مجدّداً ينقذ الايمان ويقرع أجراس الخطر في أسماع المؤمنين.

ومما يشير الى هذا – أى حاجة الايمان والمؤمنين الى مجدد بين زمان و زمان ما(١٥) بما معناه:

(إن الله تعالى يَبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة مَن يجدّد لهَا دينها).

والمجدد الحق ينبغي أن يكون على علم:

من أين يمكن للايمان أن يُؤتى، وكيف؟ ومن أى ثغرة يُؤتى المؤمنون؟

وينجح المجدد في أداء مهمته على قدر استيعابه للاسلام، و تشربه بروح القرآن، وتفهّمه لأسرار الايمان مع إحتوائه لروح عصره واستبطانه لعقول

(١٥) رواه ابو داود والحاكم والبيهقي

الناس ونفوسهم، وما يدور فيها من أفكار وما يشغلها من مشاكل ومعضلات!

لذا لزم أن يكون لكل عصر و زمان «مجدّده» الذي ينهض بأعباء عصره، ويتحمل أثقال زمانه، ويقوم بتكاليف رسالته بمسؤولية عالية، وإحساس حاد بالواجب، وشعور – كشعور الأنبياء – بقدسية الأمانة التي حُمِّلَهَا من دون الناس.

والمجددون – وإن كان محور عملهم واحداً وهو تجديد الايمان – إلاّ أنهم مع ذلك مختلفون فكراً وأسلوباً ومشرباً، فلا يمكن لأيّ منهم أن يُغني عن الآخر، أو يقوم مقامه.

فهم ليسوا سواءً، فالمجدد الذي يَطْلُعُ في خريف الايمان، هو غير ذلك الذي يأتي في شتائه، والذي يَقْدُمُ في عصر خمود الايمان وهبوط حرارته، هو غير ذلك الذي ينجم في عصور الشك والهدم الذي يتناول بمعاوله أصول الإيمان وجذوره.

ويبرز في تاريخ التجديد في الاسلام عمالقة إيمانيون، وعباقرة موهوبون، أعطوا الايمان رحيق أفكارهم وأرواحهم، وأغنوه برؤاهم، وعمّقوه في القلوب بمعارفهم وكشفوا للمؤمنين عن تجاربهم الايمانية، ومعاناتهم الروحية في تزكية النفس، وتطهيرها من علائقها الدنيوية الحاجبة عن الآخرة – ما يُعبِّد – أمام السالكين، الطريق الى الله، ويَبصّرُهم بوهادها وشعابها وحزونها وسهولها.

فرجال كالخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، والامام الغزالي، والشيخ الكيلاني، والامام الرباني، ومولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي

الشهير. وغيرهم، هم درٌ وضاءةٌ مشعة في تاج الايمان والاسلام، لا يمكن للزمن ان يطمس وضاءتها او يكدر صفاءها.

وصاحب «رسائل النور» بديع الزمان سعيد النورسي، قد عرف هؤلاء الأفذاذ، وقرأ لهم ولأمثالهم من رجال الايمان، وذاق مذاقهم، ونهل من مناهلهم، وأفاد من تجاربهم، ولكنّ عصره غير عصرهم، وزمانه غير زمانهم، وآفات الايمان في عصره غير آفاته في عصورهم، والمآتي التي أُتي منها الايمان في عصره، غير المآتي التي أُتي منها في عصورهم، حتى إنه ليقول لأحد تلامذته، مشيراً الى إختلاف المعالجة من عصر الى عصر:-

(لو عشتُ زمنَ الرومي لكتبتُ المثنوي، ولو عاش الرومي في هذا العصر لكتب رسائل النور)

فعصر «النورسي» عصر متميز منفرد بكل خواصه ومكوناته، لا يشبه - في تعقيداته - عصر أيّ مجددٍ جاء قبله.. فهو عصر زلزالي خطير، هزّ كلّ ما توارثته البشرية من قيمٍ ومثلٍ وأفكار، وأشاع فيها الفوضى والاضطراب والشك والقلق.. وهو زمن التفجرات الفكرية والنفسية للبشرية قاطبة.. وهو عصر الثورة والتمرد على الدين والايمان والفضيلة.

وهو أيضاً عصر تأليه العلم وعبادة العقل والطبيعة وهيمنة الشك، حتى على مسلّمات الانسان وبدهياته المنطقية وأصوله العقلية..

ورغم أن هذه الثورة العارمة أوربية قلباً وقالباً، إلاّ أنها مع ذلك ألهبتْ العالم كله، ووصل لهيبها الى أقطار العالم الاسلامي أيضاً بنسب مختلفة بحسب قرب هذا القطر أو بعده، وصلته بالمنطقة المشتعلة أو انعزاله عنها، وكان لتركية المسلمة القائمة على حوافي أوروبة القسط الأعظم من هذا اللهب والدخان.

وليس صعباً على «النورسي» ذي الذكاء الخارق، والعقل الاستيعابي الشمولي أن يحيط بكليات الفكر الأوربي الحديث، ويُلمّ بفلسفاته وعلومه ويطلع على إيجابياته وسلبياته. ويقف على تأثيراته في الإنسان المعاصر وفي تكوين أفكاره الجديدة، وتغيير نظرته الى الوجود والحياة، وأخيراً كيف دفع – هذا الفكر بمعطياته المادية – بشرية القرن العشرين الى هذا الموقف البارد واللامبالي من الدين والايمان عند البعض، والى العداء الصريح عند البعض الآخر.

ولم يكن الفكر الأوربي لينجح مثل هذا النجاح في غزو الشعوب الاسلامية في عُقردارها، لو لم يجد هذه الشعوبَ في حالة من الذهول الروحي عن الآخرة، حيث لم يعد للآخرة ذلك الحضور القويّ والدائم في ذات المسلم وكيانه، فتضاءل هذا المسلم وانكمش، ودخل دائرة الدنيا الضيقة المحدودة بعد أن مات إحساسه العميق بالامتداد والاستطالة الى ما واء الدنيا.. ولم تعد الآخرة اكثر من شبح باهت يتراءى له في خيالاته وأحلامه.

ولم يبدد «النورسي» وقته الثمين بهوامش المشكلة وجزئياتها، ولم يناقش فرعياتها، أو يدخل في مطارحات عقيمة حول مناقضات الدين وموافقاته لمنطلقات الفكر الأوروبي ومذاهبه الأخلاقية والسياسية والاجتماعية كما فعل الكثير من الكتاب الاسلاميين ويفعلون اليوم، وإنما توجّه رأساً وبخط مستقيم الى المشكلة الأساس وهي:

هذه الضبابية التي تتكاثف يوماً بعد يوم، وهي تكتنف غيبيات الدين –كالحشر والآخرة والجنة والنار والثواب والعقاب – في ذهن المسلم وفي خياله.

فمضى «النورسي» يسلط حرارة أفكاره على هذه الضبابية المخيفة فإذا هي تتبخر تدريجاً و تنزاح من ذهن المسلم وخياله، وتشرع كتاباته ترهف ما تبلّد من مشاعر القلب والروح، وتشحذ ماصدئ من أشواق الى الملكوت، وتفتح كوىَ النفوس ومنافذ الضمائر على نفحات الغيوب، ورَوْحِ وريحان الجنان في آخرة الرحمن.

و «النورسي» نفسٌ شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفّاذة مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه، وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيد الوجود، وظامئ عطش يترشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كل صفات الشاعر العظيم إلاّ أنه لم يقل شعراً أعني أنه لم ينظم شعراً كما ينظم الشعراء، ولكنِ ما قاله في «المثنوي» رغم أنه يحمل ميزات النثر ومقوماته شكلاً وقالباً، إلاّ أنه شاعري الروح والنفس، وجداني الانسياب رشيق في صوره وأخيلته مع عمق أفكاره ودقيق معانيه.

والشعر – بعد هذا وذاك – قد يضطر للكذب أحياناً حتى يَعْذُبَ، ويضطر للمبالغة في كثير من الأحيان حتى يحفز ويثير ويحرك، وهو من أجل تصوير معنىً من المعاني، وتجسيم قيمة من قيم الجمال والحق قد يجنح الى ما وارء المعقول، ويهبط في خياله على اللامعقول من الأخيلة والصور..

وكلام «النورسي» – رغم روحه الشاعرية – منزّهٌ عن هذا كلّه، فهو يتعامل مع صور الحقيقة ويتحاور مع آثارها، ويناقش ظلالها على صفحة الوجود وهو لا يفعل اكثر مما يفعله الرّسام البارع في الصورة الباهتة وقد

حالت خطوطها وانطمست معالمها، واختلطت ألوانها... فيمّر عليها بفرشاته المطواع ليبعث الدفء والحرارة فيما بَرُد من ألوانها، ويُجَسّم ما غام وشحُب من معالمها، ويمنحها أبعادها التشكيلية، ويهب الرائي عمق الرؤية، ونفاذَ النظر الي دواخلها.

فالمثنوي العربي النوري – مثلاً – ليس سوى لوحة فنية رائعة الجمال، رسمها فكرٌ ملتهب ولَوّنها قلبٌ دامٍ، وسكب عليها الظّل والضياء روح حزين مغترب، فلا عجب إن شدّتْ – هذه اللوحة – إليها الانتباه، وقيدت بها الافكار، وحبست عليها الأرواح وأوقفت لها القلوب.

وهي بموسيقية ألوانها، وتناغم ظلالها وأضوائها، وإشراق آفاقها. وامتداد أمدائها، وعمق أبعادها، وجمال تعبيرها؛ تأسر الألباب، وتشدَه النفوس، وتهز رواكدَ الأشواق في الانسان الى ماواء هذا العالم الضيق المحدود.. وإلى ماواء هذه الحياة التي مهما طالت فهي دون ما يرجوه من خلود، ودون ما يُرواده من آمال في البقاء والأبد.

إنّ إيماناً لا تُذكي جذوتَهُ الأشواقُ الى الله، ولا تُلهب حماسَه لوعةُ الحنين الى جمال الآخرة ولا يُوري زناده عطش دائم الىٰ الخلود والبقاء، هو إيمان تقليدي بارد، واعتقاد هشٌّ، سريع التفتت والانكسار، تستهدفه سهام الاعداء أول ما تستهدف و تتناوله معاول الخصوم أول ما تتناول.

فالمسلمون كلّهم – إذا حاورتهم – مؤمنون بالآخرة؛ ولكنّ القليل منهم من يشتاق إليها شوق العاشق الولهان الذي لا يتردّد – إذا جدّ الجدُّ – أن يجعل دنياه كلها صداق وفائه، وعربون إخلاصه، وأن يُقدّم حياته فرحاً بيوم لقائها وساعة وصالها.

والمسلمون كلُّهم – إذا سارتهم – مؤمنون بالجنة، ولكن أين الذائبون فيها؟ والملهوفون عليها؟ أين منهم مَن أضناه البعاد، وأسهدَهُ طول الانتظار.؟ وأين من يظمئُ نهاره، ويُسهر ليله من أجل رضى الله الذي بيد رحمته مفاتيح الجنان..؟

والمسلمون كلّهم – إذا خاطبتهم – مؤمنون بالنار، ولكن أين الخائفون المرتعبون منها؟ أين الذين ترتعد فرائصهم من هول عذابها؟ وأين الذين يحسّون و كأنهم مواقعوها بين لحظة وأخرى؟ فيسألون الله النجاةَ منها، والخلاص من سعيرها بما يرضاه الله من تقواهم وصالح أعمالهم.؟

ورسائل النور، كتابٌ فريدٌ في موضوعه، لم يسبقه كتاب فيما تناوله من أفكار، وعالجه من موضوعات. والراجح – عند المعنيين بالقضايا الايمانية – أنه فيما إستهدف الخوضَ فيه من «غيبيات الايمان» قد أوفى واستوفى، حتى إنه ليغني عن كل كتاب آخر في الموضوع نفسه عدا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ولا كتاب – على الأطلاق – يُغني عنه عداهما أيضاً.

ولم يوفق مؤلف كما وفق «النورسي» رحمه الله في «مثنويه» أولاً وفي «رسائل النور» من بعده، في تجلية الحقائق الايمانية أمام الأبصار (كالحشر، والآخرة، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والخلود) وفي البرهنة المنطقية على حتمية وقوعها كما أخبرت به الأديان، فجسّم ما تشاحب منها في خيال المؤمنين، وعمّق حدود ما تباهت منها في أذهانهم، وقرّب ما بَعُدَ منها عن عقولهم، وأحضر ما غاب، وكشف ما خفي عن الألباب، حتى ليكاد أحدنا يلمس بيده حقائق الغيب، ويبصرها حاضرة ماثلة قائمة في نفسه، وفيما حوله من مشاهد الكون والحياة.

والشفافية التي ينظر «النورسي» من خلالها الىٰ هذه الدنيا بأرضها وسمائها، وكائناتها وموجوداتها، تحوّل كل شئ فيها الىٰ «رمز» يومئ ويشير الىٰ معنىً من معاني الآخرة وحقيقة من حقائقها.

ولم أعرف مؤلفاً استخدم ما يعايشه الانسان – في حياته – وما يلمسه ويحسه، ويسره ويحزنه، من أمور ووقائع وأحداث في تجلية ما يغمض على الأذهان، وما يبعد عن التصور، وما يندّ عن الخيال، من حقائق الآخرة كما فعل «النورسي» رحمه الله في كل ما كتب. وهو لبراعته في استخدام «الرمز» وقدرته الفذّة على الربط بين «الرمز» المحسوس، وما يماثله ويشبهه من غيبيات الآخرة، يُشعر القارى – وهو يقرأ كتاباته – وكأنّ جوّاً أخروياً بأنواره ولطافته يَغشى روحه، ويغمر كيانه، وأنه يتنسم أنسام الآخرة، ويستنشق أنفاسها، ويكرع من مسرّاتها، وهو بَعدُ في مكانه من الدنيا.

والنورسي – بنزعته الموسوعية، ونظرتة الشمولية التي كانت طابعَ حياته الفكرية والروحية منذ تفتّح وعيه على الحياة – شغوف بالقراءة والدرس والتفحص والتأمل، يقرأ في علم النفس، ويدرس الفلسفة، ويهتم بفسلجة الانسان التشريحية، ويلم إلمام المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وبعلمي الحيوان والنبات. ويتأمل في العلوم الفلكية، ويطلع على أحدث نتاجات الفكر الأوروبي المترجمة الىٰ التركية من قبل بعض المرموقين من المثقفين الأتراك.

وبعد ذلك كله يستخدم ما أفاده من هذه العلوم والمعارف في خدمة الايمان القضية الكبرى التي كرّس لها حياته، وأوقف عليها وجوده.

ولما كانت الموجودات في هذه الدنيا – كما ينظر اليها النورسي – هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير، وأطيافَ خيالٍ لحقيقة أخروية أعظم، وأشباحاً باهتة لرؤى فكرٍ أخروي غاية في السعة والشمول والدقة والعظمة. لذا فإن كل موجود هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يناظره هناك، وكل معنىً هنا مرتبط بمعنى أسمى واعظم هناك؛ فالدنيا مرتبطة بالآخرة، وحبُّ البقاء والكمال عند الأنسان هنا يؤكد معنى الخلود والبقاء والكمال هناك، والصّورُ الذي ينفخ فيه الربيع ليبعث من الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كلّ سنة، إيماءة واضحة لصُور أكبر، وحشر أعظم يومَ القيامة، والحافظة في مخ الإنسان وهي بحجم حبّةِ خردل، والتي تحتفظ بشريط مسجل لماضي الانسان وما وقعٍ له منٍ أحداث، هي مثال مصغر لحافظة أخروية أوسع واكبر تحفظ سجلاً كاملاً لتأريخ حياة الانسان على هذه الأرض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب.

وهذا غيض من فيض من الأمثلة والمقايسات التي هي من أروع التفاتات صاحب «رسائل النور».

وخواطر «النورسي» في «رسائل النور» إنما هي تفجرات فكر ملتهب، ونفثات روح متأجج بنيران المعارف وأنوارها وإشراقات قلب ينهل من شمس الأزل والأبد.

وكل كلمة قالها أو خطها أو أملاها على تلامذته إنما هي حقيقة بعيدة المنال، خاض اليها الأهوال، وقطع الفيافي والقفار، وعبَرَ اليها بحوراً من حجب النفس والوجدان، وقاسى من اجل إقتناصها أشدّ المقاساة، قبل أن تتجلّى في سماء ذهنه مجلوة مشرقة مبرأة من ظلال الشك وسحائب الوهم، كالشمس الساطعة في ضحى يوم صائف.

وليس «النورسي» صاحب قلم بارد يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب ما يشاء وقتما يشاء.. إنما هو المعاناة الجريحة المدماة التي تنزف فكراً فيه حرارة الروح، ودفء القلب.. وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يدري أحد متى تبرق وترعد وتغيث.. وإن شئت فاستمع اليه حيث يقول في وصف حاله عندما كتب «مثنويه».

«... والكلمات إنما تولدت إثرَ جدال هائل ونقاش عظيم مع الفكر وسطَ إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فأُحسُّ برأسي يتدحرج في آن واحد من الأوج الىٰ الحضيض ثم يرتفع من الحَضيض الى الأوج، ومن الثرى الى الثريا؛ إذ سلكت طريقاً غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود، فكلما صادفتُ نوراً نصبت عليه علامة لأتذكره بها وكثيراً ما أضع كلمة على ما لا يمكن التعبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيراً ما نصبت كلمة واحدة على نور عظيم...».

* * *